[صفحة 3] [1]

◉ مقدِّمة الكتاب [2]

◈ الافتتاحية الدينية والتعريف بالمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علماً، وأنفذ في كل مخلوق قضاءً أزلياً وحكماً، له الملك الذي ليس له ابتداء، ولا لمدده وأمده انقطاع وانتهاء، وله الخلق والأمر وبيده النفع والضر. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الناهض بأعباء الرسالة، ومالك أزمة المجد والجلالة، قائد جيوش النبوة، وعاقد لواء البسالة والفتوة، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه فيما شرعه وسنه، وناضلوا من حاد عن سنته بالسيوف والأسنة، وبذلوا نفيس الأنفس في محبته، ومن اقتفى آثارهم في نصرة دينه من أمته، إلى يوم الدين آمين.

(أما بعد) فيقول الفقير إلى مولاه الغني، **محمد ابن الأمير عبد القادر الحسني**، سدد الله عمله، وبلغه ما رامه وأمله: بينما شمس سماء سيادتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة، وأشعة أنوارها على رياض أقطاره ساطعة، وربوعنا بأهل الفضل معمورة، وقصادنا بأنواع المواهب مغمورة، إذ فاجأتنا طوارق الدهر، وجاءتنا جنود فرانسا من البحر كالذر، فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية، ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية، واتصلت بيننا حروب للظهور قاصمة، ولعرى الحزم والعزم فاصمة. ثم كاثرونا بالخيل والرجل، وساورونا في الحزن والسهل، فقابلنا أعمالهم بالمثل، حتى استولى على قلوب الرعية الاضطراب، واستحكم الوهن فيها بتمكن الأسباب، ولقي ريحنا إعصاراً، وأشرب صفونا أكداراً.

◈ مرحلة الجهاد ومواجهة الغزو الفرنسي

وثم أمور تشيب الوليد * وترجع بالأشيب القهقرا.

---

(1) أرقام صفحات الطبعة الحجرية

(2) العناوين بالخلفية المُلونة من وضع المُراجِع، وليست من كلام المؤلف

ومع ذلك لم نترك المدافعة إلى انقضاء المدة، واستكمال الأمارة من أيامها العدة، فأحاطت بنا جيوش تعدو وتناوش، من دولتي فرانسا ومراكش، ولله في خلقه علم الغيب، وليس في الغلب بعد بذل الوسع عيب، ومن شأن الدوائر أن تدور، ولابد من اعتراء الخسف للبدور،

وفي السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف إلا الشمس والقمر.

ولما أراد الله تعالى أن لا نثبت في وجوههم، ولا نقوم بدفع صدماتهم وهجومهم، رأينا التسليم

[صفحة 4]

◈ الأسر في فرنسا ومطالبة الحكومة بالوفاء بالعهد

للأقدار أولى، وأن النصر ليس إلا بيد المولى، فألقينا السلاح للفرنساويين بشروط مقررة، وعهود بيننا محررة، وبالقدر فارقنا البلاد، وارتحلنا عن محل الطارف والتلاد، فعبثت بها أيدي النوائب، ورشقتها المحن بالسهام الصوائب، وغودرت منازلها صماء عمياء، وصودرت معاقلها بداهية دهماء، وأمست من كرام أهلها خالية، وأصبحت عاطلة بعد أن كانت حالية، وانمحت رسوم ذلك القطر العزيز واندثرت، وانفصمت عقود أيامه وانتثرت، ولا غرو فإن الدهر ذو غير، وكل شيء بقضاء وقدر.

هذا الذي سبق القضاء به * والدهر بين الناس ذو دول

فلبثنا في فرنسا(3) خمسة أعوام، صابرين على القدر صبر الكرام، نستنجز من الحكومة سالف عهدها، ونترقب منها وفاء وعدها، إلى أن سلك الله بنا للنجاة منهجاً، وجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، ومنَّ علينا بالانطلاق من ذلك الاعتقال، والانتقال على مطايا الراحة مع الصحب والآل.

لا تيأسنَّ من انفراج شديدة * قد تنجلي الغمرات وهي شدائد

◈ رحلة المنفى: إستانبول وبروسة ودمشق

---

(3) في الأصل: فرانسا

ثم خرجنا من فرنسا ممتطين غارب البحر إلى أن وصلنا إسطنبول[4] المحمية، دار السعادة ومقر الخلافة الإسلامية، فمكثنا بها سبعة أيام، لا زالت منهلاً للخاص والعام، وتشرَّف سيدي الوالد بمقابلة حضرة ساكن الجنان مولانا (السلطان الغازي عبد المجيد خان)، فخلع عليه خلع اللطف والإحسان، ثم توجهنا إلى بروسة بقصد الإقامة، فأقمنا بها عامين وستة أشهر في عز وكرامة .

وكان سبب خروجنا منها زلزلة عظيمة، مست أهلها بمصائب جسيمة، فيممنا البلاد الشامية، ونزلنا بالديار الدمشقية، وألقينا فيها عصا الترحال، وحللنا عقدة الرحال، فائزين بكمال التبجيل والاحترام، حائزين أعلى منزلة وأرق مقام، ملحوظين بأنظار الدولة العلية، مشمولين بصنوف مواهبها السنية، لا يتقدم علينا أحد في المحافل، ولا يرد وارد قبلنا للمناهل، منزلنا ملجأ للعموم، ومنجأ لكل مظلوم، فيه الري لكل صادي، سواء العاكف فيه والبادي.

◈ الحنين إلى الوطن والجزائر

ومع ما أنا فيه من السرور، وكمال العز والحبور، كان يغلب عليّ في أغلب الأحيان تذكر الأهل والأوطان، فتتحرك مني السواكن، وتنبعث منها الأشواق الكوامن، سيما إذا مررت بمنظر يروق، وأومضت من ناحية المغرب بروق :

ذاك الزمان هو الزمان وغيره * لا فرق بين فنائه ووجوده

وما عسى أن أذكر في إقليم وقع على فضله الاتفاق، وحاز قصب السبق على غيره بالاستحقاق، فهيهات أن تنقطع له مني المدائح، ولو قطعت تغريدها الحمائم الصوادح، فإن شوقي إليه شوق البلبل إلى الورد، وامرئ القيس إلى الأبلق الفرد.

[صفحة 5]

لا الجزع يسليني ولا وادي الغضا * عنها ولا نجد ولا الدهناء

لا رامة رومي ولا حزوى ولا * وادي النقا والخيف والخلصاء

---

(4) في الأصل: إسلامبول

كيف لا وهي كما قيل:

بلاد بها ميطت عليّ تمائمي * وأول أرض مس جلدي ترابها

وعن سيد ولد عدنان: "حب الوطن من الإيمان"، وقالوا يحن اللبيب إلى وطنه، كما يحن النجيب إلى عطنه، وقيل لبعض الحكماء: بم يعرف وفاء الرجل وزمام عهده؟ قال: بحنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه.

◈ الدافع إلى تأليف الكتاب وإلحاح الزائرين

وكانت ترد علينا بعض الوفود، فيذكروننا بسالف العهود، ثم نتجاذب أعنة الحديث، ونأخذ في القديم منها والحديث، فتؤدينا المناسبة إلى ذكر أحوال سيدي الوالد -الصافية موارد بره للصادر والوارد- ناصر الدين، أمير الغزاة والمجاهدين:

إذا قيل سميه أقول مكنيا * هو الغاية القصوى هو الآية الكبرى

فكنت أخبرهم عما وقع له من الوقائع الجسيمة، والحروب الهائلة العظيمة، التي عُرف بين الناس قدرها، واشتهر على الألسنة ذكرها.

وسارت مسير الشمس في كل بلدة * وهبَّت هبوب الريح في البر والبحر

وكثيراً ما كنت أحدثهم عنها بما يُستغرب ويُستبدع، ويُحفظ في خزانة النفوس ويُستودع، مما يرقص الجماد منه طرباً، ويقضي السامع من غرائبه عجباً، فيشنفون بذلك مسامعهم، ويعطرون به محافلهم ومجامعهم، يرتاحون إليه ارتياح الكريم إلى الوفود، ويتعطشون إليه تعطش الصادي إلى الورود، ويودون تدوينه في كتاب، ليبقى ثابتاً مدى الأزمان والأحقاب، يبلغه الشاهد للغائب، ويسير ذكره في المشارق والمغارب، فيتلقاه بحسن القبول من كان الأدب مطمح نظره، ويرويه رواية الحديث الصحيح من رام أن يقبض قبضة من أثره، فيجعله لصحائف الشمائل عنواناً، ويرتب له في عجائب المآثر ديواناً.

لأنه من أهم ما تتعلق الهمم العلية بجمعه وتأليفه، وأنفس ما تتعشق النفوس الزكية حسن تدوينه وتصنيفه، فحرضوني على القيام بهذا المندوب، والتصدي لإمعان النظر فيه حسب المطلوب.

◈ وصف مكانة الأمير ومقارنته بأعلام التاريخ

وقالوا لا يخفى أن تحرير أحوال الأكابر، وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر، لمن سنة الكرام التي مضى عليها عملهم، وطريقة أهل العرفان التي نيط بها أملهم، لاسيما هذا الأمير الشهير، والسيد الجليل الخطير، من تحلت بثنائه العاطر ألسنة أعاظم الأكابر، وتشنفت أسماع الورى .

[صفحة 6]

في سائر الأطراف، بحسن سيرته وما حازه من بديع الأوصاف، وتهادت أخباره كافة الدول، تهادي لذيذ الكرى للمقل، حيث أشبه من السلف عمر بن عبد العزيز في زهده ورشاده، ومن الخلف يوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده.

وحكي الشيخ الأكبر فيما يؤثر عنه ويذكر، بل الأحرى أن يقال: كان لجده الكرّار مثال، في الجمع بين الأضداد، وأحرز مناقب العلماء والأمراء والأبطال والعباد، وهو الجدير بأن تنشر أحاديثه وتحرر، وتتلى آياته مدى الدهر وتكرر. بل حريٌّ بأن ترقم بالتبر جميع أحواله وأموره، وتضبط وقائع أيامه وأعوامه وشهوره.

فقلت لعمري قد أصبتم فيما ذكرتم، وحق أن تجابوا إلى ما به أشرتم، ولكن أين الطرق والأسباب - الموصلة لفتح هذا الباب، فلم يقبلوا مني عذراً، بل كرروا ذلك عليّ المرة بعد الأخرى، وقالوا لا يعزب عنك شيء، من ظاهر حاله وخافيه. فإنك ابنه ومحل سره ورب البيت أدرى بما فيه.

فقلت لقد حملتموني شيئاً إدّاً، وكلفتموني إحصاء نجوم السماء عدّاً، فإن حال هذا الأمير لا تفي به عبارتي، ولا تحيط ببعض معانيه إشارتي.

وماذا عسى بالوصف يبلغ مقولي * ولو مدت الأقلام من مدد البحر

◈ شهادة الخصم الفرنسي و أقوال الأعداء في الأمير

ويكفيه أن الخصم الألد، تكلم فيه بلسان الخل الأودّ،

بل صار كالمثل السائر * وخلد في بطون الصحف والدفاتر.

حكى مسيو اسكندر بالمار في تاريخه عن المارشال سوليت الفرنساوي أنه قال لبعض أصحابه سنة ألف وثمانمائة وأربعين: لا يوجد الآن أحد في العالم يستحق أن يلقب بالأكبر إلا ثلاثة أشخاص كلهم مسلمون وهم: الأمير عبد القادر، ومحمد علي باشا، والشيخ شامل.

ومليحة شهدت لها ضراتها * والفضل ما شهدت به الأعداء

◈ منهج التأليف والمصادر المعتمدة

وحيث لم أجد بداً من إجابتهم، ولا مندوحة عن إطاعتهم، استخرت الله تعالى وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد، لجمع ما أستعين به من المواد. فجلبت تواريخ وقائعه المدونة باللغة الإفرنجية، وتكلفت ترجمتها إلى العربية، وبعد مطالعتها وإمعان النظر فيها وجدت بعض مؤلفيها قد أصاب، والبعض أخطأ جادة الصواب. وحافظ فريق على انتصارات قومه، ونسي الآخر أحوال أمسه وذكر وقائع يومه. قال لوليس باليوت كاتب أسرار المارشال بيجو في تاريخه المسمى الفرنساويين في الجزائر كانت قواد الجيش تحرر لوزارتها - خلاف ما كانت تحرره كتاب الجرائد لإدارتها. فلذا

[صفحة 7]

وضعت الأخبار في ميزان واحد، وجعلت الحكم العدل فيها شهادة سيدي الوالد، فإنه رب تلك المشاهد، ولا يستوي الغائب والشاهد .

وقد استخرجت من آثار مولاي خبراً يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى . ويتعطر بعبير نشره العاطر كل مغنى .

◈ هيكل الكتاب وخطة التأليف

ولما رأيت أفاضل الوقت متشوقين إلى أخبار بلاد الجزائر وما فيها، متشوقين إلى من يدلهم على جلي أحوالها وخافيها، ظهر لي أن أذكر في المقدمة جملة كافية من جغرافية المغرب لاسيما المغرب الأوسط الذي هو موطن أسلافي، ومألف آلافي، وأبين ما اشتهر فيه من المدن والأمصار ، والجبال والأنهار . ثم أذكر طرفاً من أخبار المبدأ

أساساً لما أثبته، وتمهيداً لتفصيل ما أجملته، وأذكر ما سلف في أقسامه الثلاثة من الدول، ومن عمرها من الأمم الأول، وما جرى فيها من عظائم الحروب، وتغاورها من غرائب النوائب والخطوب، وأختصر ذلك على وجه يستحسنه السامع، ويبتهج به المطالع .

ولما فرغت من ترتيبه، وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه، حصرته في قسمين: الأول في سيرته السيفية، والثاني في سيرته العلمية.

◈ تسمية الكتاب وحادثة السرقة وإعادة التأليف

وسميته «تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر» فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله، وسرقته عمداً من حرز مثله، جزاه الله على ما أبداه من حسده، في نفسه وماله وولده .

ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد، لجمع ما تفرق من المواد، بعد أن فقد منها الأكثر، وبقي من المسودة ما لا يذكر، فجاء مطابقاً للأصل، وخاب من الحاسد والمنة لله الأمل.